حول مسرحية مطاع صفدي

« رجال محاصرون »

بقلم الدكتور رفيق الصبان

تتسم مسرحيات هذا القرن عموما بطابع مميز خاص يعطيها لونا كاشفا ويدفعها باتجاه واحد معلوم ، هو طابع (الحلقة المفرغة) .. فابطال هذه المسرحيات يقفون منذ السطور الاولى للمسرحية امام أنفسهم ينظرون الى موقف ما .. بحالة شديدة من الدهشة .. ثم يكتشفون من خلال فصول ثلاثة اليمة مأساتهم الحقة المتمركزة في وحدتهم القاتلة وعجزهم عن ايضاح انفسهم للاخرين .

والشيء البارز جدا في مسرحية مطاع صفدي الاخيرة التي طلعت علينا بها مجلة الآداب في عددها الاخير هو هذه الصفات نفسها .

فمنذ الكلمة الاولى من المسرحية .. تلقيها خديجة في انسياب قاتل .. وثورة كامنة .. تنفجر المشكلة الاولى التي يعرضها مطاع وهي تمرد الفتاة الشرقية (خديجة لا بد ان تأتي كما فعلت منذ سنتين لم يخطر ببالك انني قد اكون مثلا هجرتك الى الابد .. او انه اصابتني علة ما ..) ...

وموقف الشرفي منيب الذي يحاول كذلك منذ اللحظة الاولى .. ان يبعد هذه الثورة عنه .. ان يقصيها ان يتكلم عن شيء اخر .. (ماذا حدث يا خديجة ؟ ! اتركيني لحظة أتكلم فيها عن شيء اخر ..)

من هي خديجة ! امن هو منيب .. ؟! وما هو المدى الذي يدفع اليه الصفدي ابطاله .. وما هي المشكلة الحقيقية التي تواجههم .. ! !

خديجة ابنة الريف .. اتى بها شقيقها ابراهيم الى المدينة .. لتحيا حياة انثى واعية .. تعي شخصيتها وتعي انوثتها كاملة .. وتعي حقها في الحياة ، وابراهيم لا يدري انه اذ جعل من اخته ميدانا لتجربته الفكرية ، فانه قد ارادها هو الاخر مطية لافكار الرجل .. كما كانت منذ الاف السنين اي اننا منذ منطلق الرواية امام حل فاشل لمشكلة المرأة .. فخديجة لم ترد الثورة على شرفها .. وانما كانت محطا لابراهيم يجرب فيه اراءه عن ثورة المرأة وتحررها .

لذلك نلحظ منذ كلمات خديجة الاولى .. مدى تخبطها .. ومدى حيرتها امام شرط وثورة لم تردهما .. انما فرضا عليها فرضا .. كما فرضت عليها عواطفها .. وكما فرضت عليها حركاتها .. وكما سيفرض عليها مصيرها ..

وفي المدينة التي أتت اليها خديجة .. يعرفها شقيقها بصديقه منيب .. وهنا ايضا نرى ان تجربة خديجة لم تكن تجربة واعية .. فحتى هذا (الذكر) الذي تصادفه.. الذي سيكون القطر الذي يدور حوله مصيرها .. هو ذكر اتى اليها عن طريق اخيها .. لم تختره هي .. وانما فرضته عليها ظروف اخرى قاهرة .. لقد وجدته امامها .. فلحقت به ، وكأنها دمية مصنوعة تسير وفق خط رسمه لها (الميكانيك) القابع في أعماقها .

وتنشأ علاقة عجيبة بين خديجة وهذا الصديق منيب .. لا نعرف من سياق الرواية ان كانت علاقة جنسية أم مجرد صداقة روحية جامعة.. ولعل المؤلف قد اراد هنا ان يخرج بشخصياته عن اطارها الحسي ليذهب بها في ميدان افكاره المجردة ، وليضع قوالب ذهنية لهذه المخلوقات التي تحيا مصيرها المحتوم .

ولكن هذه العلاقة بريئة كانت أم آثمة .. تظل في مجتمعنا الشرقي علاقة بين (امرأة ورجل) أي علاقة غير جائزة لا يقرها مجتمع خديجة القروي .. بل أنها تظل غير مشروعة حتى في هذا (المجتمع الحر) الذي يحلم ابراهيم بتحقيقه .. لذلك فانها سرعان ما تسبب دويا مكتوما يصل الى مسامع أهل القرية فيقفون وقفة رجل واحد .. ويطلبون من ابراهيم ان يدفع ثمن تجربته .. ان يجعل الدم المطهر الوحيد لهذا الاثم الذي انتشرت رائحته بين منازلهم البيضاء .. أي بكلمة واحدة .. ان يقتل شقيقته .

وهنا يقف هؤلاء الابطال الثلاثة امام مشكلتهم وجها لوجه .

خديجة .. التي تقف تجاه ثورتها وقفة انثى .. ربما كانت واعية بعض الشيء لتجربتها .. ولكنها تقف منها وقفة المتسائل .. وقفة الذي لا يمكنه ان يحدد المصير .. بل يترك للاخرين حق تحديده .. انها انثى الشرق بشاعريتها المتدفقة الاسيانة .. بضلالها المليء بالظلال ... بحيرتها التي لا تنتهي وبتجربتها المبتورة التي ولدت قبل الاوان .

وابراهيم (البطل) الذي يريد ان ينتصر على شرط اجتماعي رسمه له آباؤه واجداده .. والذي يريد ان يثبت انتصار افكاره على قيمه البالية التي لم يعد بامكانها ان تملأ له حياته واحلامه ... والذي يقف امام مشكلة وقفة الحائر الذي لا يستطيع ان يدفع هذه المشكلة عنه والذي لا يمكنه ان يجد لها حلا . ان ابراهيم ليس عقلاني الشرق .. بل انه العقلاني في كل زمان ومكان الذي يخلق مشكلته .. ثم يقف امامها حائرا .. عاجزا عن الوصول الى أي منفذ يؤدي الى الشمس .

واخيرا منيب .. القطب الثالث في الرحى .. الشخصية المتهالكة التي لا تعرف من الحرية الا وجهها المشرق . والتي تنكر او تتجاهل اي جانب قائم من المشكلة . لا تريد ان تعرف اسنانها الا مذاق العسل .. ولو كان الاخرون يتساقطون من عبء مسؤولياتهم .

لا يمكننا ان ندعي ان منيب لم يحب خديجة .. ربما أحبها .. ولكن كما يمكنه ان يفهم هو الحب .. تجربة عاقرة .. لا تتخطى الحواجز والحدود . وعندما تدق ساعة الخطر .. ينجو كل بنفسه .

هذه الشخصيات الثلاثة العجيبة هي التي تقف امامنا خلال الفصل الاول من مسرحية (رجال محاصرون) لمطاع الصفدي .

ان مطاع لا يعرف اللف والدوران .. والمسرح الذهني بأجمعه لا يلجأ الى وسائل جانبية للوصول الى اهدافه . لذلك فالمشكلة تطرح منذ اللحظة الاولى .

نحن في بيت منيب .. وخديجة تأتي اليه شأنها دائما .. لتخبره ان علاقتهما قد اكتشفت من أهل قريتها جميعا .. وان ابراهيم الاخ الاكبر .. هو المكلف بمحو الاهانة .. وبذبحها من الوريد الى الوريد ..

لنقلها مسرعين ودون تردد .. هذا الفصل هو أجمل فصل في المسرحية .. استطاع مطاع ان يرسم فيه خطوطا سريعة نفاذة لمشكلته وابطاله .. وان يعرض وجوههم الشاحبة المريضة من خلال كلمات متمردة رهيبة .. تعكس الف ظل .. وتمتد بصورة متصالبة اخاذة .

فها هي خديجة تقف امام النافذة تشهد الغروب قائلة (أحب ان أظل هكذا من بعيد على موت الشمس .. من هنا .. من هذه الغرفة العالية في الجبل .. أظل كذلك على موت المدينة .. الشوارع لا أرض لها .. أرى رؤوسا بعضها صلعاء .. بعضها سوداء السقف .. شقراء السقف .. كل الناس في المدينة مسقوفة رؤوسهم جيدا .. قد تميع في النهار تحت الشمس .. وقد ترد في الليل .. ولكن الرؤوس تظل محمية جدا .. والافكار في سجنها دائما .. والامال مكورة في الداخل.. والعيون منخفضة نحو الاسفل ...)

اننا امام صورة رومانتكية كاملة الجوانب .. الانسان القزم الذي امتد متطاولا حتى بلغ نهاية الاشياء واصبح يراقبها ويحكم عليها ويجردها .. ولكن هذا الانسان القزم قد استجمع كل ما تحويه انسانيته من شعر وكآبة رومانتكية فاجعة .. فوقف وقفة المارد .. الذي ينكر ظله والذي يرغب ان يحقق نفسه تحقيقا كاملا وان كان ذلك عن طريق الموت ..

في هذا الفصل المدهش .. امسك مطاع باطراف ماساته .. أمسك بدماه المسكينة التي تتعثر تجاه مصيرها .. وتجاه الاحداث التي لم تفهمها .

ما هو السر العجيب الذي دفع ابراهيم الى تحقيق تجربته ؟ هل كانت التجربة الحياتية التي اراد ان يخوضها عن طريق شقيقته تجربة وجودية حقة تستمد جذورها من فلسفة ارادها ابراهيم ان تكون معيارا لحياته ، أم ان هذه (الحركة) كانت مجرد تجربة عابثة .. وتمرد روتيني يعانيه كل شاب منا حين يرى جوع مجتمعه .. وعجزه عن تصليب الاسس ودعمها ؟

لا أريد ان أرى بين أبطال مطاع الثلاثة متمردين حقيقيين ... فالثلاثة يعيشون تمردا هامشيا لا ينبع من أعماقهم وانما يأتيهم من مصدر حياتي آخر .

فابراهيم لم يكن ليجرؤ هو نفسه على الزواج من فتاة في قريته (عبثت) كما عبثت اخته .. لذلك نراه يتخبط في الفصل الثاني من المسرحية تجاه الحدث الذي أصاب حياته ، لا يهتدي الى قراره بل ان تركيب شخصيته نفسه يجعله عاجزا عن ان يجد حلا .. لانه اذا وجده قائما يكون بذلك قد هدم الاساس الذي ترتكز عليه حياته كلها ، انه من هذه الشخصيات التي يضج بها عالمنا المعاصر ، حائرة بين سماء لا تؤمن بها ، وأرض كفت عن السير عليها لانها كشفت كل ما فيها من طين وعفن .

أما خديجة فهي الشخصية الوحيدة التي يبدو ان مطاع قد أحبها .. وانه لم يستطع ان يجرد نفسه ، كمؤلف ، من ان يحيا أزمتها العجيبة انها في شاعريتها المغرقة في كلماتها المتحررة ، في اندفاعها البطيء نحو مصيرها ، في قلقها ، في حيرتها ، في ترددها .. (أوفيليا) حديثة امام هملت يائس جردته انوار الكهرباء التي يشع بها الطريق من كل الاوهام التي كانت تبعثها القناديل الخافتة التي امتلات بها قلعة الامير الاسود .

اننا نراها في ختام الفصل الثالث مهدلة الشعر ، تقف امام مصيرها المليء بالدم ، مستسلمة ، واثقة ، رهيبة ، بل انها هي نفسها التي تنبأت منذ ختام الفصل الاول ((بان كل شيء سيتكرر .. ويتكرر كما كان منذ الاف السنين ، منذ ان جزت رقبة اول انثى من اجل آلهة كلها من الذكور .. وتجز اليوم من اجل ذكور كلهم آلهة)).

انها الفتاة الشرقية بكل شرفها المرضي المليء بالياسمين والعفن.. بالصديد وازهار العوسج البرية .

لقد ارادت خديجة ان تحقق نفسها .. حتى ولو كانت نقطة الانطلاق بالنسبة اليها نقطة هامشية تستمد جذورها من شخص اخر.. قبل ان تستمد جذورها من نفسها هي..

ولكن الانطلاق قد حصل .. والنتيجة ان كانت مبنية على تفسير خاطيء ، فهي نتيجة لاحداث وقعت فعلا . لذلك فمنطق خديجة يدفعها الى تقبل الامر بشجاعة مفاجئة مستمدة من قوة الدفع النفسي الذي وجدت مصيرها متعلقا به .. لم يبق امامها الا هذه النهاية الرومانسية التي تميز كل فتاة شرقية .. او كل عذراء لم تجرب الحدث الجنسي مهما كانت هويتها .. انها تقف امام ماضيها .. امام طفولتها .. امام احلامها الممزقة وقفة حزينة آسية .. خافضة الرأس تهمس قبل ان تتكلم :

((لن اصعد ثانية الى مفارتي .. ربما طال العوسج الان على بابها.. وتكاثف بعروقه العنكبوتية الجافة .. سوف يغمرها الشوك الازرق النحيل والفتاة النحيلة ذات الثوب الرخو الطويل سوف تغرق في الظلمة ... وتأكلها الوحشة العمياء .. لن تمسها البروق .. لن تملأ صدرها عصفات الريح لن تغسل لحمها زخات المطر الجبلي البارد .. الشوك يغمرها .. والوحشة العمياء تبدد نشوتها لن يطول معدنها أي نور ناري .. لن تتحول من مجرد ترابة مرصوصة كثيفة الى الماسة شفافة .. انهم يزرعون العوسج على باب مفارتي .. العنكبوت القذر يسد علي منافذ الفضاء الرهيب ... اموت ... اخمد في طينتي اللعينة الاولى .. لن يلتمع مني اي جوهر .. ما انا الا امرأة تزحف على الطين)).

ان الشاعرية هي الطابع المميز لشخصية خديجة .. الاستسلام الشاعري لقدر اهوج لم تشأه هي ، ولم تدافع عنه ، انما دفعت اليه ..

لست هنا بصدد حديث طويل عن مسرحية مطاع الصفدي الاخيرة.. فالمسرحية معقدة الحادثة ، متلونة الاسلوب ، متشعبة ، تعرض كثيرا من المشاكل باسلوب خاص يتميز احيانا بالجفاف الفلسفي واحيانا بالوداعة والرقة التي نلمسها في احاديث الاناس الطيبين ..

ولكن هل هناك اناس طيبون في مسرحية الصفدي ؟ لقد استعرضت حتى الان الشخصيات الثلاث الرئيسية ، ولم اتعرض للشخصيات الثانوية الاخرى .. والحق يقال ان هذه الشخصيات لم تصنع من المعدن الذي صنع منه الابطال الرئيسيون . انها اشبه ماتكون بالانوار الكاشفة لا هدف لها الا القاء بعض الاضواء الخاصة على شخصيات مطاع الاصلية.

ربما كانت طيبة في اساسها ، كهذا الاقطاعي الذي يرغب بالاصلاح

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب ـ بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها

ولكنها سرعان ماتنجرف في هذا السيل من العفن فتنسى طيبتها .. وتنسى طهارتها الاصلية ..

لا اريد ان اقف معها .. قدر ماأريد ان اخوض في المشكلة التي عرضها مطاع .. والتي ارادها ان تكون رمزا لمجتمعه ودليلا يكشف عن تمرده الاصيل ضد اوضاع قائمة .. واطر اجتماعية يقف خشبها مليئا بالدود .. متحديا الزمن .. تحديا « دون كيشوتيا » مضحكا .

ان التمرد الذي يشعر به ابطال « رجال محاصرون » هو تمرد مفرغ .. تمرد عابث .. بدأ بداية سيئة .. وانتهى الى « لا حل » .. انه يعكس صورة عن مجتمعنا الشرقي المريض الذي غلفت القيم المتعددة سقفه فاصبح يسير ورأسه مشنوق الى الاعلى ... يفتش ويفتش ويفتش عن قيمة واحدة حقيقية بين الاف القيم ..

اننا امام ابطال ثلاثة .. اختلطت البطولة المزيفة في عالمهم .. مع التمرد الحقيقي .. ولكن طابع الزيف والبعد عن الحقيقة كان المحور الاساسي لمأساتهم .

ان خديجة تستسلم لمصيرها ، لانها اكتشفت زيف ثورتها ، وهي تسعى الى الموت حالة بالحقارة التي اصبح يجللها العوسج ، وابراهيم قد اكتشف برعب حقيقي عجزه عن حل ازمة ارادها بملء حواسه .. ازمة بناها على اسس زائفة .. ان مأساته الحقيقية هي هذا الاكتشاف المذهل المخجل الذي لم يستطع ان يواجهه ، لذلك هرب بنفسه بعيدا، مفضلا ان يكون انسانا حائرا ، على ان يكون اداة لعمل زائف .. يحققه ضد عمل زائف اخر .. ان ابراهيم بطل مشوه فقد وجهه وفقد اسسه، فلم يعد هاملت ، ولم يعد غريب كامو ، ولم يعد ايا كان ، لقد اصبح « لا شيء » بعد ماساته .. اصبح انسانا في قطيع . اما منيب ، فلقد كان البطل الحقيقي ،رغم جبنه وعجزه الذي سار مع منطق حياته ، جبان منذ البدء ، حسي ، خيالي ، واقعي ، مكشوف ، مجموعة من المتناقضات متراكبة ، متداخلة ، تسير كقطاعة عجيبة .. تستمد وجودها من معجزة مؤمنة هي نفسها بانها ستنفجر في يوم ما ، وان انفجارها لن يترك اي اثر .

ربما كنت مغاليا بعض الشيء في تصوير هذه الشخصيات.. فهي في واقعها شخصيات صلبة استطاعت ان تطرح مشكلة، وما التشويه الذي اشير اليه الا عجزها عن تمييز هذه الجدران التي تحاصرها ، انها جدران بالية من التقاليد لاتقف على اساس ، انما هي وهم مزركش ، فالدين اكذوبة تسير في ركاب الاقطاع ، والاقطاع يستمد وجوده من تقاليد بالية مهترئة تتغير بتغير اوراق النقد ..

ان مسرحية مطاع الصفدي هي مسرحية تحلل عجز الجيل ..عجزه عن ايجاد مشكلة لمصيره ، وعجزه عن وضع اسس لثورته وتمرده ،وعجزه عن مواجهة نفسه . وقهر الحصار الوهمي الذي يطبق عليه .

وان الطريق التي رسمتها هذه المسرحية .. لتدل على هوة اليمة يتخبط بها جيل فقد مثاليته .. وفقد فلسفته وفقد كل اساس يبني عليه وجوده ..

لقد اراد مطاع ان يكون مصباحا ينير هذه الفاجعة .. فسار بفصوله الثلاثة سيرا رتيبا أليما ، وكشف لنا قدر مايستطيع النور الجوال ان يكشف حائطا مهدما وشخصيات مشوهة تحلم بالخلاص وتنادي باصوات مجلجلة مدوية .. مع ثقتها المطلقة في اعماقها بان لا خلاص ..

وكم اتمنى ونحن في هذا التيار المسرحي الكثيف الذي يتناوب بلادنا اليوم ان تجد هذه المسرحية التي تعتبر المحاولة الاولى من مثقفينا لدعم المسرح السوري بروايات محلية الطريق الى الانوار ، كي يقف المتفرجون كما وقف القراء مع هذه الشخصيات الحالمة .. التي تعرض قطعة واقعية من حياتها ، والتي جرؤت على بسط مشكلتها الاجتماعية بلغة سلسة دون تعقيد ، وبحادثة متماسكة مترابطة ، جميلة السرد شاعرية التعبير.

دمشق — **رفيق الصبان**

مخاض الصمت

وطرقتِ بابي
فأصختُ لم اسمع سوى عبث السنين على كتابي
كانت صحائف قصتي ، تثوي معي .. في قبرِ مابي
فأضاء شيء كالشهابِ
يشفي جروحي
فأذا بروحي
حلم يرفرف في الهضاب

* *

يا أنتِ كيفَ أتيتِ كيفَ بزغت لي . مزقت أكفان التراب
فأذا الزهور .. وكن ثم عوافيا
فوق الحجاره
ينهضن ، يعبق عطرهن
ويستحلن الى طهاره

* *

قالوا الربيع
فقلت .. اذا مشى كالريح في هذا الاهاب
قالوا لها عينانِ
قلتُ بحيرتينِ .
في خضم من عباب
غامت به روحي .. سنينَ .. فغصت في بحر الضباب
أنا والهوى .. كنا نقيمُ هنا بمقبرةِ الشبابِ
سأظل انتظرُ اللقاءَ .. وراء اكفاني
وأحيا في عذابِ
حتى يئين مآبها .. حتى تتوق الي مآبي
أنا زهرة .. لو لوحتها الشمس .. تمتص انتحابي
وتعودُ تمطر عطرَها ، وتمد غصناً في السحابِ

* *

قد آن .. ان تعودُ .. فأبتهلي لذلك ياروابي
هي كالربيعِ .. وكالحياة .. كلاهما جاءا لبابي
أبيا علي الصمتَ .. فأستمتعْ بعمركِ ياشبابي

بغداد — **صفاء الحيدري**